

فالمسألة الاجتماعية تنحل لساعتها. ودواء الباطل بالدعوة إلى الحق. فالباطل يشفى لأننا نرى منه جزءاً يضحل كل يوم بفضل انتشار العلم فلا ينبغي اليأس من القضاء عليه ولا بد من أن يأتي يوم تغلب فيه الحقائق الاقتصادية على الناموس ويرون الاختلاس ضاراً فيجندل الشقاء أبد الدهر.

### المنازل الرخيصة في الغرب

قال النورد روزبري: إن من يعمل لما فيه إهماض تلك الجماعات من الناس الذي قضى عليهم أن تصفر وجوههم وتذل نفوسهم وتحط مداركهم في المساكن القدرة التي يتولونها هو بلا شك عامل على ما فيه نفع الجنس البشري عامة.

ولقد نشأت الفكرة الأولى لإنشاء بيوت العننة حوالي سنة 1810 وزادت حركتها سنة 1835 على يد شركات المناجم بني الحدود الفرنسية البلجيكية واحتذى أحد أرباب المعامل الألمانية سنة 1835 حذو الشركات الفرنسية فأنشأ في مولهوس إحدى مدن ألمانيا مسكناً كبيراً في حديقة تشمل على 36 منزلاً فتم عمله على أحسن الأساليب واقتدى به كثير من أهل المقاطعات في الشرق والشمال في فرنسا.

وفي سنة 1851 توسع أحد الفرنسيين في هذا الفكر وأنشأ شركة عبرت لألف ومائتي أسرة ألفاً ومائتي مسكن منفرد بعضها عن بعض ولكل منها حديقة يصبح ساكنها مالِكاً لها وللسترل بعد مدة يدفع ثمنها على نجوم مقررة.

وبدأت إنكترا في سنتي 1841 و 1848 بالافتداء بالفرنسيين والألمان في هذا السبيل وأنشأت إحدى شركات فرنسا مساكن طيبة للعننة كل منها مؤلف من حديقة وطبقة أرضية ومطبخ وغرفتين وفي الطبقة الثانية ثلاث غرف وبيت مؤونة وقبو

ولم يكنف المسكن أكثر من 293 جنيهًا يضاف إلى ذلك ثمن الأرض التي لم يكنف مترها أكثر من خمسة إلى ستة فرنكات وجعلت إيجارها الحقيقي كل سنة 230 فرنكاً أي أقل من فرنك كل يوم عن مسكن يؤوي عائلة مؤلفة من خمسة إلى ستة أشخاص وإذا أراد الساكن أن يملك المسكن في خمس وعشرين سنة يجب عليه أن يؤدي زيادة عن الأجرة 169 فرنكاً فإذا كان الساكن من العنيلة الذين يربحون في الساعة 60 إلى 80 سنتين أي لا أقل من ستة فرنكات في اليوم يتأتى له أن يسكن في مثل هذه الدار ويمكها بعد ذلك إن أراد بتوفير شيء قليل من نفقاته.

وكانت هذه البيوت في ضاحية باريز ولما ارتفعت أسعار الأراضي هناك أحبت الشركات أن تبعد عن العاصمة أكثر فأصبحت تبني بيوتاً لا يكنف الواحد منها أكثر من خمسة آلاف فرنك. كما أنشأت أيضاً بيوتاً لم تكنفها أكثر من 3200 فرنك وبيوتاً لم تكنفها أكثر من 2800 جعلت إيجار الأخيرة منها 140 فرنكاً في السنة وفيها معظم ما يحتاج إليه من الغرف والمطبخ والأنبار وحديقة لطيفة.

وأنشأ الإنكليز بيوتاً رخيصة في جنوبي لندن كما أنشئوا منذ سنة 1867 في شمالي إنكلترا في بعض المدن الصناعية بيوتاً يقل ثمن الواحد منها عن ستة آلاف فرنك جعلوها درجات فالدرجة الأولى لا تتجاوز أجرتها في اليوم فرنكين وهكذا في الدرجة الخامسة. وسكان هذه البيوت أو مستأجروها لا يقبضون في يومهم أكثر من عشرة فرنكات ولا أقل من سبعة. وأقيم في وسط تلك الحدائق التي أنشئت البيوت عليها منتزه عام تكون فيه الاجتماعات وتقام فيه الشعائر الدينية وخصص محل منه للنساء والمرافق والجامع وفي جانب ذلك خزانة كتب عامة وغرفة كبرى للنسطة لغرفة

لنعب البلياردو وحدا حدو هذه الشركات كثير غيرها في جميع الأقطار الإنكليزية وبعضها يدفع نحو خمسة في المائة فائدة الأموال التي يستخدمها في هذا السبيل. قال النورد بيكسفند سنة 1874 عندما رأى حياً من تلك الأحياء التي أنشأها إحدى الشركات ليقم فيها العيلة: إنني لم أشعر في حياتي بدهشة أشد من دهشة عرتني عندما زرت هذه المدينة الصغرى (شهافتسبورغ بارك) وقد تجلنى لناظري لحاج ساكنيها الذي هو ولا شك ضمان لارتقاء الأمة. ولطالما جال في خاطري أن لا شيء يحني همى المدينة مثل البيت فهو مدرسة جماع الفضائل الأهلية وبدون مسكن لطيف الباطن يتعذر عليها في الحقيقة الوصول إلى هذه الفضائل.

وكان يقتصر في أمثال تلك المساكن سابقاً على الضروري من الحجرات ويعني بأسباب الراحة فقط أما الآن فقط ارتقت الحال في تلك الشركات شأن كل حي في الوجود فصارت لا تقتصر في بنائها على الضروري بعض الشيء بل رأت التائق والزخرف لازم لحياة الساكنين أيضاً.

جرت عادة بعض السكك الحديدية أو التراموايات في أوروبا أن تسقط كثيراً من أجورها لمن يشترك بها من العيلة لأن الدور الرخيصة التي بنيت لهم تكون في الغالب بعيدة عن المدن الكبرى وحالتهم المالية لا تساعدهم على اداء أجورها كسائر الناس فكان من شركات تلك البيوت أن عقدت مع إدارات السكك الحديدية مقاولات لمراعاة الساكنين في بيوتها مراعاة لا تكاد تصدق.

ومن لم تساعدهم حالهم من العيلة والفقراء في الغرب للابتعاد عن المدن كثيراً فقد جعلوا لهم مساكن متلاصقة بعضها ببعض. وكل ساكن حر في منزله وفيه يجد ما يلزم

لنبوت فيتيسر بذلك للسكان أن يجيء نصف النهار إلى بيته ليتناول الطعام مع أهله وفي ذلك من الاقتصاد ما فيه إذ يمتنع رب الأسرة عن الذهاب على المطاعم أو الحانات وكنها مما تضر بصحته وكيسه معاً وبذلك لا يصعب عليه أن يدفع أجره أغنى من الأجرة التي يدفعها البعيد عن مسكنه. وقد أسست شركات عظيمة غنية في لندن منذ سنة 1845 وكثرت في المدن البريطانية ورأس مال كل شركة من هذه الشركات لا يقل عن مئوي جنيه وتدعى أمثال هذه الدور دور الشكن (القشلاقات) وهي أبنية عظيمة ذات خمس طبقات كل طبقة منفردة عن بعض يفصل بينها فناء متسع ينبع فيه الأولاد وقد فتحت فرج في الأدراج وجعلت في بعضها محرات ومنازل يدخل إليها النور والهواء وليس فيها دهاليز مظلمة وهي على غاية النظافة على أنواعها مستوفاة شروط الصحة كل الاستيفاء.

ومعدل أجره مسكن ذي ثلاث غرف من مثل هذه المساكن هو 400 فرنك وأجرة الغرفة الواحدة نحو 137 فرنكاً ومعدل أجرة من يسكنون في أمثال هذه المنازل ستة فرنكات في النهار يدفعون أجورها صباح كل اثنين من كل أسبوع. وتسأل الشركة عن سلوك من يريد السكنى في بيوتها وعن مسكنه وذمته في أداء الحقوق وهي تؤثر الأسرة التي لها أولاد على غيرها على حين أن أكثر المؤجرين لا يرضون أن يكرؤا بيوتهم لمن كثر أولادهم فكان ذلك في فرنسا من جملة الأسباب في قلة النسل فيها.

وقد أوصى المستر بابودي الأميركي سنة 1862 باثني عشر مئوي فرنك لإنشاء دور من هذا النوع في وسط مدينة لندن ينفق ريعها كل سنة لإنشاء بيوت جديدة وقال في وصيته أنه بعد انقضاء قرن يكون الربيع السنوي الناتج من الإيجارات قد بلغ مبلغاً

عظيماً فلا يكون في لندن عامل فقير واحد لا يحصل على مسكن صحي موافق له ولا سرتة بأجرة تناسب ما يقبضه.

ولو لم يتزل كما قال الخيرون معدل الفائدة بعد مرور مائة سنة على موت هذا الكريم لجاوز ما جاد به مليارين وأسكن 350 ألف أسرة. وقد ظهر بالإحصاء أن الوفيات ولا سيما وفيات الأطفال تقل في بيوت اخسن بابودي أكثر من غيرها وأن المواليد فيها أكثر وأن مساكنه كان لها تأثير حسن في الصحة.

والغالب أن هذه المساكن ناجحة في إنكلترا أكثر من غيرها في البلاد الأخرى وفي مثل هذه البيوت بقليل من الذكاء والعمل يمكن للأمم التي تقول عن نفسها أنها متقدمة وأنها تتقي ذاك الجذام الخبيث من المساكن الضيقة التي تموت فيها الصحة وتفقى القوى بما ينبعث من روائحها الخبيثة وما يتراحم فيها من الأقدام والأنفاس وما يتجلى عليها من الوحشة والبشاعة وما تكون سبباً له من الأمراض والاختلاط الضار والانحطاط الطبيعي والأدبي.

ولم تكتف إحدى الشركات في لندن بإنشاء بيوت رخيصة بل أنشأت مطاعم رخيصة للعبلة. وأنتك لتدخل تلك البيوت والمطاعم فلا تشهد أثراً للنفاقة والفقرة. وقد نظرت بعض تلك الشركات إلى مصانعها المادية وإلى مصالحة الساكنين ورأت أن أعمالها لا تدوم غلا إذا كان ربحها معتدلاً فكان معظمها يعطي أرباحاً ثلاثة ونصف في المائة وبعضها أكثر من ذلك أي بقدر ما يعطي القنصليد الإنكليزي أو غيره من أوراق بعض الحكومات وفي ذلك من الفائدة للعبلة البائسين ما يخفف عنهم شقاء الحياة وفيه خدمة اجتمع بأسره وأي فائدة له أكثر من أن يرى الشقاء يقل فتقل معه الأحقاد

والحسد والثورات ويكون أرباب الأموال آمنين على أموالهم من الضياع وهم يتجرون في غرض شريف. وقد أسفرت مشاريع إنشاء هذه الدور عن ربح معتدل لمن قاموا بها ولذلك أقبل عليها هناك من لا يحبون المخاطرة بأموالهم في المضاربات وغيرها.

وما عدا هذه المنازل والدور الخاصة بالأسرات فإن القوم أقاموا غرفاً مفروشة للإيجار يسكنها رجل واحد أو امرأة واحدة أو فتاة أو فتى. فقد أنشأت جمعية الإحسان في باريز نولاً أو حياً في مثل هذا وأخذت تؤجر العرفى الكبرى بفرونك في اليوم والغرفة الصغرى بستين سنتياً وهذا التزل عبارة عن خمس طبقات نظيفة يكثر فيها النور والظرف وغرفة المائدة متصلة بأحد المطاعم بشروط عقدتها معد وتقدم لها الأطعمة الجيدة بشئ بخس ومثل ذلك تجد في شيكاغو بأميركا وغلاسكو في إنكلترا وغيرها في غيرها.

ومما تفننوا بإنشائه من المساكن منازل للعزاب أقامها في لندن النورد روتون فبلغت اليوم نحو خمسمائة مسكن يسكنها نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة مستأجر يتزلون فيها ما أحبوا ثم يغادرونها. وهذه المساكن أشبه بكن حميئة آخذة من القوانين الصحية بنصيب وافر وكل مقصورة أو غرفة منها أشبه بمربط الحصان يسكنها الفرد وتكون مفتوحة من أعلاها. والمغاسل وغرف الاجتماع والطعام مشتركة بين الساكنين وهي معرضة لنهواء النقي والنور الذي ينعكس عليها من القرميد الأبيض المعمول بالطينا على السطوح وغرف الاجتماعات فيها مزدانة بالصور ومزخرفة أي زخرف وبيع فيها الطعام والشراب بأثمان بخسة وأجرة الغرفة في اليوم ستون سنتياً. ومع كل هذا

الرخص لا تخنو الشركة القائمة بأمر هذه المساكن من ربح تجنيه. وبالسكنى في تلك البيوت يتخلص العامل أو المستخدم من قسوة المؤجرين وطعنهم الأشعي ويزل غرفة لا أوساخ فيها ولا أقدار بعيدة عن منهكات الصحة.

وأمثال هذه الشركات كثيرة في إنكلترا وتفوق ما هو من نوعها في فرنسا وقد أنشئ معظمها وأدير بيد مشاهير من النبلاء كان لهم البرنس ألبرت والبرنس دي غال أحسن قدوة يقتدون بها وقد حميتهم على الاستكثار منها أسباب كثيرة منها الخوف من ازدياد البؤس هناك وما أحدث في قلوب العقلاء من القلق ولا سيما كثرة السكان في لندن وغمر طبقات العمالة.

بنع رأس المال الموضوع في إنكلترا لإنشاء بيوت رخيصة للعمالة مئاري فرنك وفي فرنسا مائة مليون فرنك ومعظم تلك الأموال تدفعها الحكومة كما هو الحال في ألمانيا وتدفع أحياناً من دوائر البلديات كما يجري في ألمانيا وإنكلترا وروسيا. وتقوم بذلك في بعض الأحوال شركات مختلفة النوع والصفة. وما أحسن ما تقوم به ألمانيا وتسلفه لعمالتها ومستخدميها المساكين من الأموال لتقيم لهم بيوتاً رخيصة ما أمكن. وما عنينا هذا لو دققنا النظر إلا الاشتراكية العملية على ما تتجلى في العادة الاشتراكية في شمال أوروبا الاشتراكية ليس سداها ولحيثها كلاماً ولا خصاماً قلنا ينتفع بها إلا نافخو ضرامها ثم خصومهم ثم العدو القريب.

قال جان لاهور وإني وإن رأيت أن تسير الأمور أولاً بمعونة الحكومة وحمائيتها ولكني أؤثر أن تعمل عزائم الأفراد عليها مستقلة فإن العزائم إذا جمعت عظمت بالاشتراك وإنكلترا أعظم مثال في هذا الباب. نعم إن الإقدام الشخصي والشركات الخاصة أنفع

للأمة في هذا الشأن. لأن إلقاء المسؤولية على عاتق الحكومة لا يكون منه إلا سوء إدارة وقلة اقتصاد وعمل متوسط وأكلاف مفرطة فيما تتولاه. ثم أن الاعتماد أبداً على الحكومة يورث الأمة عادات ضارة تتره منها الشعور بالاستقلال الذي هو أحرص ما تحرص عليه نفوس العقلاء ويعيث بالتربية الحرة ولا سيما في بلاد دستورية. إن معنى مطالبة الحكومة أن تعمل كل شيء أو مطالبتها بمعظم شؤون الأمة هو تعويد الأمة على أن لا تعلم لنفسها بنفسها شيئاً أو أنها تعمل التافه والحقير من الأعمال ولا يجب أن تدخل الحكومة إلا حيث يضعف عمل القوة الفردية ويحقق اتحاد الشركات. الحكومة إذا نافست الأفراد توشك أن تتزعززع منهم الهمة وتضعف فيهم الجهاد وإذا تولت إدارة مثل هذه الدور تنتهي بأن تعين لها عمالاً كثيرين من لدنها على أن كثرة الموظفين هي اليوم الضريبة القاضية على الأمم كانتشار المشروبات الروحية وربما كانت من مفاسد عصرنا وأمراضه الوبيلة وفيها الخطر كل الخطر علينا. الكحول سم الإرادة والاحترام الشخصي والتوظيف كما هو الآن عندنا لا يقل عنها ضرراً. وما التوظيف في الحكومة لقاء رواتب تدفعها لموظفيها إلا صورة من صور الرق والعبودية القديمة في مظهر جديد يضطر فيه صاحبه أن يطلق حرية روحه وفكره على حين ترى الخدام ممتعين بما. ولقد نرى حكومات في الغرب كحكومة ألمانيا مثلاً قد انتهت لهذا النقص فما أحببت أن تكثر من جيوش الموظفين كما هو الجاري في فرنسا وأن تنهك ميزانيتها بالملايين للإدارة عليهم بل خصصت ملايين في ميزانيتها لأعمال من مثل هذه مصبوغة بصبغة الديمقراطية والاشتراكية العسكية. وأما إنكثروا فلحسن طالعها أن نفوذها في رعاياها قليل والقول الفصل فيها لهمة الأفراد.

وقد قررت دار الندوة الإنكليزية سنة 1890 أن تمنح المجالس البلدية حتى نوع منكية البيوت القدرة وأن تمديد معونتها لنشركات وتسلفها أموالاً في مقابلة رهن لإعادة تلك البيوت إلى حالة حسنة تجمع إلى النظافة الرخص ويعود الفقراء فيسكنوها فكان في ذلك من المنافع الصحية العامة ما ظهر أثره في وجوه السكان وصحتهم. ولا معنى لتساهل الحكومة وقلة عنايتها وهي المسيطرة على القانون أن تترك الناس وشأنهم إذا بلغت بهم الحال إلى هذه الدرجة من البؤس على أن هذا البحث كان موضوع المناقشة في المؤتمر الدولي سنة 1900 وانقسمت الآراء فيما إذا كان يجب صرف أموال الضرائب في إقامة بيوت رخيصة كما يجري في لندن وبرمنغهام من بلاد الإنكليز وفي فريبورغ وأولم في ألمانيا وفي غوتسبورغ في السويد على يد المجالس البلدية إلا أن الرأي العام كان مناقضاً لهذه الاشتراكية.

وانك لتجد الممالك الصغرى في أوروبا من العناية بأمثال هذه المشاريع ما للممالك الكبرى وزيادة. فإذا كنا نسع بنور المدينة ينبعث من ألمانيا وانكترا وفرنسا في أوروبا فإن سويسرا والدانيمرك والسويد والبنجيك وهولاندة لا تقل عنها في المشاريع العامة الخيرية إن لم تقل تفوقها في أكثر حسنات المدينة لأن النقمة الصغيرة يسهل ازديادها أكثر من الكبيرة كما يقولون ولأن الصغير المدبر يتيسر له ضم أطرافه أكثر من الكبير المتوسع في أملاكه. وخذ مثلاً لذلك البنجيك فإنها بفضل صندوق التوفير العام فيها قد أصبح خمسة عشر ألف عامل فيها يملكون بيوتاً يسكنونها وذلك في مدة عشر سنين أسلف هذا الصندوق في خلالها اثنين وثلاثين مليوناً من الفرنكات لنعينة والشركات وبواسطتهم عبرت هذه البيوت الرخيصة على أن مثال فرنسا

وألمانيا وغيرهما من الممالك الكبرى مهتما عني بإعانة البائسين وإيواء المساكين فلا يبقين إلا مقصرات فإن شركات ألمانيا وغيرها من الأفراد سلفت العنيلة ثمانمائة مليون مارك لمثل هذه الأعمال الاجتماعية وكذلك فعلت إنكلترا وأقرضت عملتها. فترى بعض شركات كشركة البناء فيها لا تبين بيوتاً بل تقرض مالا للعنيلة ينون لأنفسهم به فيؤدي العامل كل يوم اثنين عشرة فرنكات مثلاً أي 520 فرنكاً في السنة بحيث يجتمع له بعد ثلاث سنين 1600 فرنك وبذلك يبين بأنه يستطيع أن يقتصد وعند ذلك يعبد إلى شركة من شركات بناء الدور الرخيصة ويطلب إليها أن تقرضه مالا لإنشاء مسكن فيؤدي إليها أولاً الـ 1600 فرنك التي اقتصدها وثانياً مبلغ 2400 فرنك يدفعها بعد فتكون مكنها أربعة آلاف فرنك ويظل على تأدية عشرة فرنكات كل يوم اثنين من الاستهلاك وقد كثرت أنواع هذه الشركات وكان عددها في إنكلترا 2243 شركة لا يقل رأس مالها عن مئتي فرنك حتى أن بعضهم رأى أن بعض تلك الشركات تقبض من العنيلة المشتركين معها كل يوم اثنين مليون فرنك. كل هذه الأعمال لا ترى فيها الحكومة إلا أثراً ضئيلاً ما عدا ذلك فالأفراد والشركات سيديرون ما يديرون وكذلك رؤساء المعامل فإن منهم من يهتسون هناك بمصالح من يعملون عندهم اهتمامهم بمصالح أولادهم ولا سيما في البلاد الجبلية التي لا ترى فيها إلا صخوراً أو مضائق وأودية.

وقد استعمل بعضهم البيوت النقلة التي اخترعها الأمير كان لتكون عوناً على استعمار بعض الأطراف البائرة والأصقاع المتناحية في الولايات المتحدة وهي مصنوعة من خشب الصنوبر وتختلف فيمنتهات بحسب ما فيها من الغرف من 2500 فرنك إلى

9500 فرنك يتقلده الإنسان حيث أراد وكذلك البيوت الخشبية التي اصطنح عليها في بلاد الترويج والسويد والروس وكنها من أحسن النماذج في البيوت الرخيصة. رأى بعض الاجتماعيين أن تولي رؤساء المعامل من أمر عينتهم ما يتولون في بعض بلاد الغرب فيقتطعون جزءاً من أجورهم لسداد ما عليهم من أثمان مساكنهم التي يكون منكاً لهم بعد قليل من السنين — أن هذا العمل يفقد العنلة استقلالهم بعض الشيء فيضطرون أن يعملوا في معامل رؤسائهم ريشاً يوفون ما عليهم أو يخرجون منها قبل وفاء ما عليهم فيلقون المشاكل وما عدا هذا الخدور فإن تولي الرئيس أو المعلم أمر عينته والنظر في مستقبلهم وإنشاء بيوت لهم أو حملهم على الاقتصاد هو السداد بعينه.

وفي بعض البلاد لا يتأتى إلا أن يتداخل رؤساء المعامل في أحوال مستخدميهم كبلاد روسيا مثلاً. ولذلك كانت مساكن العنلة في أكثر أرجائها بدیعة مستوفاة شروط الصحة ولا سيما في الأماكن البعيدة عن السكان والعمران مثل معمل (داغوكردل) لصاحبة البارون إدنجرن ستبرغ فإنه أنشأ لكل عامل داراً منفصلة عن دار جاره فبلغ عددها 237=داراً فيها عامة مرافق البيوت وحديقة للثمار وأخرى للبقول وغيرها يقطع من أجرة العامل خمسة وعشرين في المائة فما هو إلا كلاً ولا حتى يصبح العامل صاحب دار فسيحة وحديقة أنيقة ويشرب السكان من آبار ارتوازية طاهرة بحيث تكاد لا تجد للحصى التيفوئيدية بينهم أثراً مع أن هذه الحصى يكاد يكون انتشارها عاماً في البلاد الروسية وأعمار من يعيشون في هذه المساكن أطول من أعمار من يسكنون في غيرها. وكم للعنلة من بيوت لا يفتحون عيونهم عليها بعد حين إلا وهي منك لهم

يخلفونها لذرايرهم جيلاً بعد آخر. وأن أفاضل الروس وأجدادهم لم يفهم أن يبسطوا أيديهم بالعطاء للنسّاكين ينشئون لهم به دوراً حسنة يؤويهم فقد أوصى سولودفنيكوف لمدينته باثني عشر مليون روبل لإنشاء بيوت يسكنها البائسون الخاويج.

ومن المعامل التي وسعت على عنتها ونظرت في رفاهيتهم معمل كروب الألماني فإنه مثال المشاريع العظيمة ونموذج من حماية صاحب المعمل لعاملته وعدم احتفاله ب المال في سبيل راحة من يقومون بأعمالهم لنفعه ونفعهم. فإن هذا المعمل وإن شئت فقل المعاملة المعروف بمدافعه وعدده الحربية صعب عليه أن يرهق العاملين فيه كما يرهق البشر بمصنوعاته فأنشأ لعاملته في مدينة أسبين الجميلة على نهر الرومن ثلثي مدن وخمسة مستعمرات وبيوتاً منفردة يسكنها العاملون آمنين مطمئنين. فهناك زهاء خمسة آلاف مسكن يقطنها زهاء ستة وعشرين ألف نسمة وقد ازدانت بالنباتات المعرشة والزهور البديعة واستوفت من داخلها وخارجها أسباب الظرف والزينة وكل ما يملأ العين قرة والصدر مسرة وأقامت إدارة المعمل بالقرب من تلك البيوت بيوتاً أخرى جميلة فسيحة للعائلة العاجزين والأيامي من نساء العاملات. ويتصل بالمعمل شركة تباع المأكولات كما تتصل به مستشفيات تامة العدة وبيوت للنقاهة وقاعات الاجتماع والمطالعة وقد صرفت إدارة المعمل على إنشاء هذه الدور نحو مليون جنيه.

وتفوق دور معامل كروب دور معامل الصابون في بورت سونلخت وقد عرضت إدارة هذا المعمل نموذجاً من الدور التي تزجر في الأسبوع من أربعة إلى خمسة فرنكات في معرض باريس سنة 1900 فكانت محل العجب وربما كانت هي المعول عليها في

المستقبل لإيواء العسنة وراحتهم ففيها جماع مرافق الحياة وفي كل منها حديقة للبقول  
تؤجر على حدة بأجرة طفيفة جداً. وهذه الحدائق يمكن زرعها على أسير سبيل بما  
أنشأته عقيلة من عقيلات الكرم والعقل من شركة تؤدي للعسنة ما يلزمهم من الأرض  
والبذور (التقاوي) والنباتات لغرسها في حدائقهم أو لتزيين بيوتهم بها.

في إنكلترا قرية لا تقل في الغرابة عن معامل كروب ومعامل الصابون المذكورة آنفاً  
وهي القرية التي أنشئت في تورنيل على يد طائفة الكواكر البروتستانتية أعني بما  
معامل الشوكولاتا فإن هذه الشركة رأت أن جمال مناظر المساكن مهنا كان نازلوها  
فقراء مطلوب لذاته فبذل أفراد من هذه الطائفة مالهم لإنشاء هذه المدينة النادرة في  
شكنها وأقامت لها أندية وألباء وخزائن كتب ومحال للنساجة وبيوتاً تحف بها الخضرة  
والنضرة على طريقة جميلة ليس فيها مظهر من مظاهر الزخرف الكاذب بل فيها جميع  
ما يلزم الحياة وبعضها مزين مبهرج منقوش ولا يكف السكني فيها كل أسبوع أكثر  
من 8 إلى 11 فرنكاً.

وقد قال مدير المعمل لأحدهم بمناسبة إنشاء هذه الدور أن المذاهب السياسية لا تأثير  
لها ولو كنا نقوم بالواجب علينا لبطلت الحروب بين طبقات الناس وليت شعري  
إذا لا تقوم المجالس البلدية بمثل ما جرأنا نحن على القيام به؟ وإن الشرح ليطول لو  
عددت المدن التي أنشأها أرباب المعامل في الولايات المتحدة لعسنتهم حتى أن حي  
العسنة في شيكاغو يعد من أهم أحياء تلك المدينة الصناعية العظيمة وأجملها. ولا تنس  
البيوت التي أقامها بعض أرباب المعامل في فرنسا ولا سيما شركة معادن لانس فإنها  
أحدثت أربعة آلاف مسكن وأجرة الواحد منها 150 فرنكاً. وبعض المعامل تقرض

عملتها الدراهم لابتغاء أرض وبناء مسكن فيكونون في الحال مالكين لها ويختارون الهندسة التي يريدونها وبعضهم يؤجر كل بيت في الشهر من فرتك وربع إلى ثمانية فرنكات وربما أعطوه بائجان في بعض الأحوال وقد استلف عملة منجم كرونري مليوناً وستمائة ألف فرنك لإنشاء بيوت لهم كما اقترح عملة مونسوليين زهاء مليون.

وفي مدينة سوشار من أعمال نوشاتل في سويسرا في معمل الشكولاتا حي عظيم لعملة المعمل ومستخدميه جاءت بيوته على صور مختلفة منها ما أجرته سبعة عشر فرنكاً ونصف ومنها ما أجرته ثمانية عشر فرنكاً ونصف تدفع الشركة نصف أجرها من عندها. ومن بيوت العملة التي استحققت الشاء مدينة فيديرون من أعمال البنجين في معمل الزجاج وفي مدينة ولفت في هولاندة وغيرها. ولكنها بيوت إن أمعنت النظر فيها تقضي بالشاء على الكثير للنساعين بها على خدمتهم الحقيقية للإنسانية والوطن والاشترابية العميلة.

وما عدا دور العملة والعناية بأمرهم تجد في أوروبا جمعيات إحسان أخذت على نفسها إنشاء بيوت رخيصة يسكنها كل فقير بدون استثناء. وقد بلغ عددها في فرنسا 67 جمعية وأقدمها جمعية باريز التي أنشئت سنة 1780 فأنشأت بيوتاً مشتركة لا يكلف السكنة فيها كل أسبوع أكثر من ثلاثة فرنكات وربع إلى سبعة وربع في مساكن فيها ثلاث غرف ومطبخ وقد استوفت شروط الراحة من هواء طلق ونور كثير ومحال يسرح فيها النظر وماء كثير طاهر يجري لمن يريد وكان للمنافسة القائمة بين تلك الجمعيات أثر مهم في نجاحها وسعيها كل حين لتحسين حالتها. والمنافسة أساس عظيم

من أسس النجاح. وقد بلغ رأس مال بعضها زهاء مليون من الجنيهات ومائة ألف مشترك وبعضها يبيع طعاماً وثياباً بشئ بخس وما تربحه الشركة من ذلك تعود فتبني به بيوتاً. وقد ثبت بالإحصاء في بضع

سنين أن عدد الوفيات في الألف من سكان هذه البيوت دون عدد الوفيات في غيرها من المساكن غير الصحية.

ومثل هذه البيوت في نظامها وفائدتها كثير من المساكن الصغرى في أوروبا فتجد في كوبنهاغن شركة بيوت العنلة وقد أقامت ألوفاً من المساكن للعنلة والشركة مؤلفة من العنلة أنفسهم وهي لهم بمثابة صندوق اقتصاد فيدفع كل عامل في الأسبوع قرشين أي نصف فرنك حتى يبلغ ما جمع من ذلك سنة 1900 مقدار 5769930 كورونا (الكورون فرنك وأربعون سنتين) فيشغلون هذه الدراهم ويعملون يانصيب فيجتمع من ذلك عشرون كوروناً في ستة أشهر لكل عامل وبعد عشر سنين يعطى إذا أراد ما دفعه مع أرباحه أو يأخذ داراً وإذا مات يأخذ ورثته هذا المبلغ ومما هو حري بالنظر في كوبنهاغن بيوت البحارة ومستخدمي البحرية التي أنشأها الملك كريستيان الرابع.

وشركة تحسين المنازل في سويسرا وميلان ونابولي ونيويورك حرية بالذكر أيضاً وكنها تدور على تحسين مسكن الفقير وبعضها يعنى بالتدفئة أيام الشتاء وياعطاء الماء الساخن لمن شاء من الساكنين بلا مقابل وإلقاء الحرارة المعتدلة في مساكنهم وقد قامت بعض تلك الشركات بيد النساء فنجحت كما تنجح شركات الرجال. مثل شركة الأنسة كولنس في نيويورك التي أنشأتها على مثال شركة الأنسة أوكتايفيا في لندن لتطهير المساكن القذرة من قذارتها وتطهير نفوس ساكنيها من حمأة الرذيلة

فنجحت كئنا الشراكين وأئنا بأرباح حسنة. وقد بدأت حكومة البرازيل منذ سنة 1882 تساعد في إنشاء البيوت الرخيصة فأصبح عددها في ريو دجانيرو وحدها سنة 1897، 5000 مسكن. ومن تلك الشركات جمعيات أخذت على نفسها نشر الدروس الاجتماعية والدعوة إلى تعلنها فكانت من أنفع ما يكون من الإصلاحات العظيمة التي أدخلت على بيوت الفقراء وجعل بعضها غاية درس الأسباب التي تنشأ الأسرة على أساس طبيعي وهو تملكها أرضاً تحرثها وداراً تسكنها. تتدرع للوصول إلى هذا الغرض بكل وسيلة ممكنة تمكنها من نشر المطبوعات ودعوة الحكومات أو البلديات أو أرباب الغنى إلى إنشاء صناديق لإيجار بيوت بئس بئس وتطالب بئس قانون تعفي الحكومة فيه من الضرائب ما يمكنه الفقراء من المساكن والأراضي وتتخذ كل سبب ليتيسر للناس اقتناء مثل هذه البيوت أو بقاؤها أو انتقالها ومنها ما يعطى للمحاويج بيوتاً يسكنونها وتحسبهم بدون واسطة الحكومة مما يصيبهم من الفاقة أيام عطنتهم ومن الشقاء وموت رب البيت قبل الأوان وهكذا تجد الحركة قائمة في جميع البلاد الفرنجية لتعقيم هذه المبادئ وتحسين حال البائس الفقير وهي كل يوم في انتشار وكثرة بحيث ينسخ هذا القرن العشرون في أوروبا إلا وقد أخذت فيها المسألة المعروفة بالمسألة الاجتماعية وإن شئت فقل أهمها إذ يكون جميع العننة ممتعين ببيوت يسكنونها والشركات والجمعيات تحسبهم من الفقر المدقع بعض الحماية وتقل بذلك الأمراض كما يرى الباحثين في أحوال تلك المجتمعات إذ استدلوا على ذلك بأن المساكن الطاهرة الصحية قد قلت فيها الوفيات عن المساكن القذرة والأكواخ الحفيرة التي هي في الحقيقة منبعث السل وغيره من الأدواء المنهكة لجسم المجتمع وقد قال الدكتور روم

أن المسكن والطعام والمعمل هي السبب في كثرة الوفيات بين العيلة فالواجب الإسراع في إصلاحها وبغيرها لا إصلاح ولا فلاح وكل ذلك متوقف على الإرادة إذا صحت والأفراد إذا أقدمت وتكاثفت.

ولم تكنف الجمعيات في أوروبا وأميركا بإنشاء المساكن للفقراء ونقشها والاستثمار لها من مرافق الراحة وأسباب الصحة بل أحبت تجيدها وتزيينها والتأنق في داخلها وخارجها لأنهم رأوا السكنى في بيوت رخيصة لا تغني الغناء المطلوب وحده.

أرادت من الدور أن تكون معرضة للهواء محبة إلى القلوب وأن لا يكون أثاثها وفرشها كئيباً قديراً بل أن تكون ماثلة إلى البساطة تجمع إليها حسن الذوق والظرف لأن عصر البيوت القذرة الضارة قد انقضى كما ينبغي القضاء على المساكن البشعة من داخلها الكثيبة التي تقول الساكنين فيها من البائسين وهم لا يشكون كالدود الذي يعيش في القاذورات.

أرادت تلك الشركات أن تستعوض عن الأثاث البشع السيئ الصنع بأثاث يكون بسعره أو أقل ولكن على صورة حسنة وتزيين ضروري وأن لا يفرشوا بيوتهم فرشاً رديناً كما هو الحال في بيوت الفقراء في أكثر بلاد الشرق. وذلك لأن النظر إلى هذه البشاعة مما تضيق به الصدور ويجرح القلوب كما تتأذى به العيون وتتقرز منه النفوس ولأن لتحسين الذوق دخلاً كبيراً في نهضة الأمة.

ترى في البلاد الديمقراطية أن الفقراء من الرجال والنساء يحاولون أن يكونوا في ملابسهم كأهل الطبقة الوسطى على أن الألبسة التي كانوا يألفونها فيما مضى لها من الرونق ما ليس لما يلبسونه اليوم على تكلفهم التقيد. وقد رأت بعض الجمعيات

إنشاء البسة لأهل الطبقة الدنيا خاصة يشاركها في لبسها أهل الطبقة الوسطى وتكون رخيصة الثمن نافعة في صحة الأجسام وصحة الأكياس وأن يكون لمثل أهل الطبقات النازلة ما لأهل منازل الطبقات الوسطى حتى لا ينكسر خاطر الفقير ولا ينقصه شيء من راحة الأجسام ولذلك كان أول عمل يعملونه إيجاد طريقة لتجيد البيوت الفقيرة وتزينها كما تنجد بيوت الأغنياء وتزين.

خذ مثلاً لذلك الجدران فإهم رأوا أن تزين أو يوضع عليها ما يزينها من البسط. وقانون الصحة يقضي أن يتيسر غسل الجدران وقد رأوا أن الورق الذي يجعل على الحيطان ويغسل لا ينفع الفقراء لأنه غالي الثمن وأن الأحسن أن تنقش بالزيت وربما كان هذا النقش غالياً ولكنه أثبت وأفرح للنظر ولا يصعب تطهيره كل مدة ويجعل الساكن عليها صورا ورسوماً ومصورات وأصونة لثياب وغيرها مما لا يتعذر في أوروبا اقتناؤه لرخصه وهو يزيد المكان رونقاً وبهجة.

ورأوا أن النوافذ ينبغي أن تكون ستائرهما من قماش يمكن أن ينفض أو يغسل بسهولة فيكون من البفتة لا من الحرير والأطلس أو الشاش المزين بأنواع النقش والزينة أما النوافذ التي في أعلى المنازل فتترك بلا ستائر والأولى أن تكون الستائر متناسبة مع نقش الغرفة وتعلق بسيخ وحلقة.

أما سرر النوم فيجب أن تكون بحسب رأي بعض أهل الصحة مكشوفة بدون كنة (ناموسية) من أعلاها لأنه ثبت أن هذا القماش الموضوع يحبس نفس النائم ويحفظ الجراثيم الضارة بل يساعدها على النمو والتعشيش وينبغي أن تناط من عند رأس السرير قطعة من القماش تتزل وترفع بحيث تمنع مجرى الهواء عن رأس النائم فقط ولا

تكون هذه القطعة طويلة وتكون من ناحيتين بحيث أن النائم حيثما انقلب لا تؤذيه أشعة النور إذا اتجهت نحوه. وينبغي التقليل من الفرش ما أمكن بحيث يسهل نفضه أو غسله. كل هذا ويراعي في الأثاث الاقتصاد والجودة فيكون متناسباً مع نقش المنزل. وتخبر الأشياء المنطبقة على الذوق لا يكلف إلا بعض عناية وبذلك تعود بعض العادات في بساطة البيوت التي كانت مألوفة. وليس الجمال في الأثاث والرياش المتكلف في صنعه والمزين من وراء الغاية بل الجمال في الفرش البسيط الاقتصادي النافع المناسب. وإنا نرى أحسن زينة في البيوت بانكثرتا هي ما كان منها من أصل ريفي مألوفاً في القرى والمدساكر إلا أنه يجمع إلى البساطة نظافة وحسن ذوق.

وقد حسب ما ينبغي لفرش بيت الفقير على هذه الصورة وهو أن تفرش غرفة المائدة وغرفة الاستقبال صغيرة وثلاثة غرف للنوم فرشاً بسيطاً كما يكون البناء رخيصاً بألف وخمسمائة فرنك إما أن يدفعها الساكن دفعة واحدة وإما أن يستلفها من الجمعيات والشركات التي أخذت على نفسها في أوروبا تقديم أحسن الفرش للبيوت بأثمان متهاودة فيدفع عن هذا المبلغ فائدة طفيفة وهي خمسة بالمائة. وإذا استأجر العامل أو الفقير داراً من مثل هذه فلا تتجاوز أجرها وهي مفروشة أحسن فرش صحي فرنكاً وثلاثين سنتيماً.

وبهذا رأيت أن لفرش البيوت في أوروبا جمعيات كما أن فيها شركات وجمعيات لتقديم الطعام الرخيص والألبسة الرخيصة والمساكن الرخيصة بحيث إلى بعض أرباب العقول في أكثر الممالك الإفرنجية أن لا يتركوا بيتاً قديراً ولا بشعاً وأن تكون بيوت الفقراء

كبيوت الأغنياء لطيفة الداخل والخارج فتقى يا ترى ينسج الشرق على مثال الغرب في مثل هذه الأعمال النافعة والحضارة الرافعة.

#### مثال الأمة الراقية

جرت العادة أن تقتدي الأمم بعضها ببعض ولا سيما فيما فيه إعلاء كلفتها وقوام سعادتها فتطرس الأمم النازلة على آثار الأمم الناهضة. قال هنري ليشترجه أحد أساتذة كلية باريز في خاتمة كتابه ألمانيا الحديثة ونشوتها ما تعريه:

لم يكن لألمانيا في أوائل القرن التاسع عشر كيان يدل على أنها دولة عظيمة بل كانت أشبه ببناء يتداعى والناس من حوله لا يعيرون بما يجري له. فلم يكن هناك دولة يضح أن تسمى ألمانيا بلا كان أمراء من الألمان منشقين على أنفسهم يتحاسدون وقلما يحرصون إلا على مطامعهم السافلة في الحكومة وهم أهل لكل تسفل لا يتحامون ارتكاب الخيانات على ضرورها للاحتفاظ بسنطتهم الشنيعة وتقوية أمرهم وليس لهم من الكفاءة ما يستطيعون معه توجيه مطامعهم المنبعثة عن أنانيتهم الخمسة نحو ما فيه نفع الأمة بل كانوا يؤهون بالغريب ويخالفونه لقضاء مآربهم يعلنون الحرب على أبناء وطنهم إذا ساء له أمل بحلب بعض النفع من غدرهم وخيانتهم. وبين ظهوري مثل هذه الأمة المنقسمة الضعيفة لا يرجى أن تقوم قائمة للحياة السياسية وأن يكون لها ذلك ونظام الحكومة المطلقة فيها ضارب بجرائه وكثيراً ما يستحيل إلى استبداد يبيد الخضراء والغضراء والناس مع هذا خاضعون وخانعون حتى كادوا يقربون حد الرق والعبودية. ابتعد الفلاحون وسكان المدن وأرباب الصنائع وأهل الطبقة الوسطى عن الاشتراك في الشؤون العامة واستسلموا لظلم الحكومة وطبقة الأشراف على ما فيه من النكد وهم

ضعاف الحول والقوة لا قبل لهم برد عاديتهم عنهم ولم يعودوا يبالون بته بالحياة الوطنية بل تنحوا إلى دائرة أشغالهم الخصوصية.

كل هذا الحياة الاقتصادية في الأمة ضيقة النطاق حقيرة الشأن والشعب مشتت مبثر والبلاد فقيرة والمال قليل والصناعة تكاد تكون عدماً. فلم يبق للخروج من مأزق هذا الشقاء إلا مخرج واحد وهو تنسية العقل والصناعة فترلت طبقة الخاصة المتعنية إلى هذا الميدان وهبت هبة حماسية صالحة.

وفي تلك البلاد الألمانية المشتتة المغنوبة على أمرها التي كاد يوم الخراب ينق فيها بما تواتر عليها من الحروب والغارات أزهى التهذيب الأدبي والفنسي الذي ربما كان أجمل سطور بحد الذي تفاخر به هذه الأمة. ودخلت ألمانيا من ذاك العهد في ميدان العمل وتحنّت عن عالم الخيال والأحلام. وإذا كانت إنكلترا استولت على البحر وفرنسا على البر لم يبق لألمانيا كسباً جاء في بعض أقوالهم المعروفة إلا أن تؤسس لها منكأ في الهواء فأنشئت منكة لا نظير لجلالها ولا قرين لعظمتها.

ولم تنبث هذه الأمة المتقهقرة الساقطة من حيث إدراك الحقائق الأرضية المولعة على ما يظهر بالخيالات والتهورات أن نشأت فيها فكرة الإقدام على الأعمال وظهر لنحال بأن الشعب الألماني ربما كان الوحيد بين شعوب أوروبا في استعداده للتقدم في الجهاد الاقتصادي. فهو لم يقتصر في فضته الغربية على النحاق بالأمم اللاتينية التي سبقته زمناً إلى طريق الارتقاء المادي بل تقدم عليها حتى جعلها ورائه. وكاد يهدد اليوم إنكلترا أيضاً فيما كانت لها المكانة المكيّنة فيه منذ القديم في الأمور الصناعية والتجارية.

فبدأ هذا الشعب البطيء الثقيل بعض الشيء القوي في ذاته السالم في نفسه أنه مستعد لترقية المدنية وأن بلاده صالحة لغرس بذورها. وهو لا يعشق مثلها البطالة والفراغ ولا يرغب في العيش في التغزل بالجمال وحسن العشرة بل أنه يميل من فطرته إلى الجد وهو قوي الشكينة عامل لا يعرف الملل سليم الطوية.

سار منذ القديم على نظام دقيق في الأخلاق. وخضع منذ أزمان لقانون قاس في التدريب على الجندية. وفي مثل من كانت هذه طبيته خالية من الزهو والظرف ولكن فيها المثانة وطول الأناة كبرت إرادة قوية صبورة منظمة لها من الكفاءة ما تستطيع معها أن تأخذ سبيلها الذي سنكته والغاية التي قصدت إليها من دون أن ينهيهما الهوى والشهوة وبغير أن يشيها ثان من صعوبة أو تحول دون آمانيها عقبة.

تطلع ألمانيا إلى بسطة سيطرتها مدفوعة إلى ذلك لا بعامل الرغبة في أن تكون في مقدمة الأمم وأن تظهر شأنها وأمرها ولا من أجل المنافع المادية التي تحاول نيلها بل أنها تريد رفعة الشأن لذاتها لأنه مقياس حقيقي لما يساويه رجل أو جماعة أو حزب أو أمة.

ألمانيا مسوقة إلى المشاريع التجارية بنابل من ناموسها الاقتصادي تضطرها إليه ضرورة ملازمة لها ملازمة محتمة. الألماني كثير النسل للغاية. فقد ازداد سكان ألمانيا من نحو 25 مليوناً سنة 1846 إلى زهاء 36 مليوناً سنة 1855 إلى 60 مليوناً سنة 1905 وأنت أعلم بأن هذه الزيادة تزيد في عدد الأسر والبيوت.

وهذا النمو من الأمور التي ساعدت على نماء الثروة بينهم لأن الزائد كل سنة من أبناء الأمة ينشأ منهم لألمانيا جيش من العاملين الذين تحتاج إليهم الصناعة في ترقية شؤونها وقد انتشر فكر الإقدام على الأعمال في الطبقة الغنية من الأمة انتشاراً كثيراً.

وإنك لترى رب الأسرة منهم غير طامع أن يترك لأبنائه كما هو الحال عند الفرنسيين مقاماً كريماً بعده لهم ودخلاً مضموناً يستمتعون به بعده بل أنه يربيهم تربية متينة ويجهزهم لجهاد الحياة بأقوى جهاز ثم يتركهم وشأنهم يحدون في الأرض مرتزقاً.

فروح الشباب يعب ويفرغ الجهد مخافة أن يسقط عن المكانة التي بنى عليها أهله. وهكذا كانت كثرة النسل في هذه الأمة مهرازاً قوياً يحث ألمانيا على النهوض إلى طنب الثروة والشوكة. وهذا الجهاد في سبيل العظمة يكبر ويضخم في عامة شؤون الحياة الألمانية وفي جميع فروع الجهاد البشري. فتراه متجلباً في الأفراد وفي الأحزاب السياسية وفي الطوائف الاجتماعية وفي الحكومات المتحدة وثابتاً بمجموع الأمة الألمانية بأسرها فيما تظهر فيه من مظاهر بسط السلطة وما حازته من الاشتراك في سياسة العالم. هذا الجهاد يرمي إلى رفعة شأن الجندية والبحرية والنفوذ السياسي والقوة الاقتصادية والصناعية والتجارية والتقدم العلمي. لأن العلم أيضاً صورة من صور السلطة البشرية ولا شك أن ألمانيا حازت قسطاً كبيراً من نجاحها بواسطة علمها.

صحت العزائم على التدريج وقويت إرادة السيادة وأشربتها روح الألمانى فمال إلى التهذيب بكنيته. ولم يكن ميل الألمانين إلى الفنون ميلهم إلى القوة لأن الفنون كالدواء المسكن لدواء أفعال منه فهي لا تقصد من ثم لذاتها. على أنه مما يجب أن يعرف أن رغبتهم في القوة لم تكن رغبة في القوة الوحشية الظالمة ذات الأهواء والأحكام العرفية التي تظلم عن تغفل وهوى وهي منافية للحق والعدل بل أن رغبتهم كانت مصروفة إلى القوة الذكية المفكر فيها التي تقبل لأنها مشروعة بفضيلتها الذاتية لا لأنها نافعة عاقبة. ومن العادة أن تقوى القوة على الضعف وأن تخضع الطبقة النازلة للطبقة

العالية. الألمان احترموا القوة التي هي حق أيضاً ولأنها تعبر عن تقدم حقيقي يقضي العدل بأن يعترف به ويحترم.

جهاد الألمانين لبسط سلطانهم يجري على ترتيب وتنسيق ما أمكن فإن نظام حرية المنافسة وهي عبارة عن محاربة الفرد للمجموع وتحريك الأنانية الشخصية يحتوي في مطاويه ولا شك مبدأً فرضياً أقرب إلى الانحلال منه إلى التماسك. فيتأتى له أن يكون كما كان سابقاً في إيطاليا على عهد النهضة مثاراً للشخصيات الساخطة التي تنازع غيرها للتفوق عليه واليأس أخذ مأخذه ويهتك بعضها بعضاً بلا شفقة. بيد أنه من الثابت أن ارتقاء مبدأ حرية العمل في ألمانيا لم يؤدي إلى نتائج من هذا القبيل. فإن المنافسة بين الأفراد وبين المجموع على أكثر ما تكون من الشدة ولكن لا يستحيل أبداً إلى فتح لا نظام فيها.

طال جهاد ألمانيا في سبيل الوحدة السياسية واستعر النزاع بين حكوماتها في أمره فانتهت حالة بحرب. ولما أصدر الحكيمون من النواب عن الأهلين حكمهم في هذا الشأن سكنت الكراهية وزالت الأحقاد ورضيت الأمة في الحال بما وضع لها من نظام جديد وبدلاً من أن تضع الوقت في شحناء لا فائدة منها وتنهك قوتها في الانتفاض العبت راحت تجمع قواها لدفع غارة الحروب السياسية التي يشتد بينها الخصام ويدوم ولكنه لا ينتهي في الغالب بفتح شعواء. وربما كان بين الطبقات المختلفة عندهم أشد مما هو عند غيرهم ولكنك لا تجد فيه ما يستشتم منه ربح الثورة حتى أن الفكر الإصلاحى يقوى شيئاً فشيئاً بين الحكومات التي ترى التوسع في جمع رؤوس الأموال وبين الاشتراكيين الألمان ممن آلوا على أنفسهم ألا أن ينافروا الحكومات فتراهم يقضون

بدون تقيّة على كل ما من شأنه أن يدعو إلى القسوة ويتحامون الوقوع فيما يؤدي إلى اتخاذ سلاح القوة ولو كان فيه تحقيق أمانيتهم وإبلاغهم غاياتهم وهم يصرون جهاراً بكرههم لمقاومة روح الجندية وللاعتصاب العام.

ترى المنافسة الصناعية والتجارية مشدّة كلّ الاشتداد وهم الأفراد بالغة أقصى الشدة والجراة ولكن ألمانيا وهي مهد الشركات العظيمة المؤلفة من أرباب المعامل أو العملة هي على التحقيق من البلاد التي بذل فيها الجهد لتنظيم أسباب الإنتاج ووضع المراقبة على أسواق المقايضات ليكون من ثمّ للمنافسة حد محدود ويقلل من معاودة الأزمات وإضعاف شدتها إذا حدثت.

وعنى الجبهة الجهاد الشخصي على أشده في ألمانيا ولكن لا يؤدي فيها إلى فوضى الأفراد وربما كان ذلك من الصفات التي اختص بها هذا العصر.

النماني يقنّى شعوره بالنسبة لغيره من الأمم الأخرى في الحاجة إلى ترقية شخصيته ترقية تامة فيختار برضاه أن يحشر نفسه في بعض أعمال خاصة ينصرف إليها بمجنته. ويؤثر عن طيب خاطر أن يفادي بجزء من شخصيته وذاتيته ويكتفي كمن يقول التعبير الألماني بأن يكون منه جزء من إنسان بل أن يكون منه أخصائي يقوم أحسن قيام بعمل يختص به كل الاختصاص دون أن يعني بما يخرج عن الدائرة التي وضع نفسه فيها وألى أن لا يتعداها. ومن أجل هذا السبب يختار أن يشرك غيره معه وأن يكون تبعاً له ولا يرى حرجاً في الانضمام إلى الجماعات التي تكثر في ألمانيا.

يؤثر الألماني أن يجعل نفسه جزءاً متصلاً لبناء متسع تتألف منه آلة تختلف الحاجة إليها والاستغناء عنها. وهو يسعد بأن يفادي بحظ نفسه من أجل منفعة تأتي ببعض الأعمال

الكبرى ويختص في سبيل نجاحها. وبالجملة إن في الألمان غريزة التهذيب بنظام واحد فيحسن الألماني الطاعة كما يحسن الأمر ويعرف كيف ينفذ الأوامر الصادرة إليه على غاية التدقيق كما يعرف بذل المهمة في الدائرة المختصة به.

الشعب الألماني يخرج الأعضاء النافعة الرائعة من بينه ممن هم عند أبنية اجتماع الضخمة اللازمة لتنظيم الأعمال المهمة من جيوش وطنية وإدارات كبرى ومشاريع متسعة من مالية وصناعية وتجارية ونقابات.

الألماني لا ينفك عن الانضمام والتألف حتى في الفنون التي من شأنها الانفراد وإنك لتراه حتى في الموسيقى يجري على نغمة واحدة. وهذا الذوق في الاشتراك والخضوع طبعي فيه فهو لا يكره على الخضوع لنظام صاغوا بل يقوم به والسرور ملء جوانحه. هو أخصائي بنده ما هو فيه ولا يأسف على ما يبقى خارج أفقه على الدوام. نعم هو يقتنع بالوقوف دون حدود كفاءته والسرور يبدو عليه مزوجاً بالزهد وربما ظهر عليه شيء من الاحتقار والاستهزاء بالذي يعرف القشور ويحشر نفسه فيما لا يعنم ويدعي أنه يناقش بل يحل المسائل السياسية والدينية والفنون والأخلاق. صاحب الجد في الألمان يحتقر بفطرته المرتجزين والمقتصين الذين يخطون ويخطون ومعنوماتهم ناقصة وسطحية ممن يعانون كل موضوع ويتساقون عليه وليس لهم سلاح ماض من الكفاءة ومن خلق الألماني أن لا ينقي بنفسه خارج اخط الذي يعرفه وإن شئت فقل أنه يقل فيه الفضول ويرى ن غاية العالم هو ما اختص به وتفرد بعلمه.

كان من نتائج هذه الغريزة في الألمان من الخضوع لنظام وترتيب طبقات المجتمع عندهم أعظم حافظ للأمة. الفكر الشخصي في ألمانيا ثاقب للغاية ولا يتنكأ أمام

مشكلة مهنا كانت ويبحث فيها كلها مستقلاً كل الاستقلال. على أنه يكره التطرف في حلها. فليست ألمانيا من حيث الأمور الدينية مثلاً جاحدة ولا كهنوتية ولا تنبذ اكتشافاً من مكتشفات من ينكرون الوحي من طريق العنم بل ترى أبداً إبداء شيء من الاحترام لنحكمة الغريزية الظاهرة في الشعور الديني في الإنسانية وهي تحاول أن توفق ما أمكن بين العنم والإيمان والحقيقة العقلية الحقيقة التقليدية كما أنها في الشؤون السياسية تقصد إلى أن تمتع رعاياها بمبدأ السلطة ومبدأ الديمقراطية فلا تقبل أصلاً السلطة الاستبدادية المطلقة بل ترى احترام الحكومة المطلقة لما فيها من ترتيب الطبقات. فالديمقراطية الألمانية لا تطلب أن بيدها وحدها سعادة الأمة بل ترى عن رضا أن يشترك في السلطة معها زعيم عالي المقام لا توجده هي بل يكون لما أوجدته التقاليد.

وبعد فنه يتجلى أن ألمانيا بفضل معنى النظام والترتيب المغروس في أبنائها أخذت في الترقى لإدراك معنى التكافل في الحياة الذي هو على التدرج مهذب بل متسم لمذهب حرية المنافسة ومن هذا على ما أرى كان ارتقاءها موضوع إعجابنا في الأكثر. فإن انتشار الأحزاب السياسية والعصابات الاجتماعية ونقابات أرباب الأعمال والمعامل والعنة واتساع دائرة أعمال الصناعات الاجتماعية كلها تدل على ما تم لفكر التكافل من النجاح النامي. فحل بالتدرج الشعور بضرورة الجهاد في التكافل لإحراز القوة محل هيجان المنافسة العامة والحرب التي يثيرها الفرد على الجميع. فألمانيا تتوقع وترجو أن يكون لها بعد دور الانقلابات العظيمة والتقليل وقلة الأمن الناشئين من ارتقاء مذهب حرية العمل ما تدخل معه في دور النظام الاقتصادي والاجتماعي الذي

يكون إلى السلامة مرتباً على قانون ثابت وإيمان وخلق أقل تردداً. فهي تطمح بذلك الجهاد العظيم في سبيل الوحدة السياسية والثروة المادية أن تنهض نخضة الشسير نحو الكمال في التهذيب والتكامل في النفس. ولا شك أن هذا مما تقرأ في صفحاته جمال المستقبل. ويكفي في هذه الآمال على ما يتسرب إليها من الريب أنها لا تبدو غير ممكنة التحقيق في عيون الألمان فينظرون الطريق التي قطعوها بما يحق لهم من الإعجاب ويرون المستقبل الذي إليه يسرون بشيء من حسن الظن فيه.

بقي علينا الآن أن نثبت أن الشعور التكافلي لم يبرح وطنياً صرفاً عند الألمان فالألماني يشعر بأن مسئوليته في التكافل مع ابن جنسه لا تزال في زيادة أما مع سائر الأمم فإنه لا يرى بأساً من الانطلاق في حريته ومنافستها.

### سير العلم والاجتماع

#### خرائب منفيس

قدم الأستاذ فليندرس بيري تقريره عن أعمال البعثة الإنكليزية الشريفة في مصر وقد جاء فيه أن هذه السينة صرفت كلها في البحث في خرائب منفيس القديمة فعينت البعثة أولاً أن تعين مواقع الأبنية المهتمة المختلفة التي ذكرها كتاب الروم ولا سيما هيرودوتيس فوجدت مذبح معبد باتا العظيم وبيت الحياة الذي كان سطحه عبارة عن ستمائة متر طولاً وأربعمائة وخمسة وستين متراً عرضاً. وعثروا على عدة شهادات تدل على ارتقاء التمدن ولا سيما على مصانع ترجع إلى الدولة الثامنة عشرة (1800 سنة قبل الميلاد) ومن جملة هذه المصانع رفوف لتوضع عليها النذور يشاهد عليها آذان نقش عليها هذه العبارة: يا بانا اسمع لدعوة من يدعونك ممن يعبدونك وأهم